المرجعية اللسانية وآليات الإقناع في الخطاب الديني

د. محمد يونسي
المركز الجامعي الونشريسي – تيسمسيلت –

" نتمنى أن يكون الخطاب الديني حاملا أجوبة وخططا وآليات تنفيذية لمعالجة الواقع المزري في إنتاج المعرفة ونشرها إذ كانت عظمة الإسلام في العصر الذهبي إنتاج المعرفة ونقلها إلى العالم " ***زياد حافظ***

بسم الله والحمد لله حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، فلك الحمد يا ربّ حتّى ترضى ولك الحمد يا ربّ إذا رضيت ، ولك الحمد يا ربّ بعد الرضا ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله الذي تنطق كلّ يوم به ملايين الشفاه وتهتزّ لذكره قلوب الأناه بعد ذكرها الإله ، لسان الحقّ الذي بلّغ الدعوة كاملة فما كتم منها من شيء وما بخل بها صلى الله عليه وسلّم .

أمـا بعد :

لقد هلّ نور الإسلام على الجزيرة العربية ودخل العرب وغيرهم في دين الله ، بعد أن صمد الرسول (ص) وصحبه لمعركة الدعوة المريرة التي صادفت الرسالة في مستهل عهدها، و كان القرآن الكريم ببلاغته وإعجازه قد أخذ بمجامع إعجاب فصحاء العرب من أبناء تلك الأمة التي امتازت عن غيرها باللسن والبيان والخطابة والإفحام ارتجالا وإعدادا في ميادين القول المختلفة التي سادتها المفاخرة والمنافرة .....

فهذا اللسان – اللغة – مادة اجتماعية ، بمعنى أنها تنمو وتنهض فتغدو كائنا حيّا ينبض بالحركية والفتوة والتطور وفقا للممارسة الفعلية لها في الواقع ، وبالتحديد إذا شرفت بميزة التعميم على سائر قطاعات الحياة ، ومن ناحية

تتراجع وتتخلّف وتندثر، وتتقلّص حركتها ممّا يعمّق الشعور بغربتها بين أهلها إذا همّش المجتمع استعمالها وحرمها حرية التداول1.

الخطاب الديني والخطاب النصي :

لقد شهد الخطاب الديني في خضم الحركية المعرفية الجديدة، والرؤى والقراءات التي تناولته بالدراسة والتحليل وطبّقت عليه مختلف التأويلات، نوعا من التذبذب القرائي – إن صحّ التعبير- ممّا أفرز نوعا من التحول في خطاب النصّ، كان نتيجته ظهور ما يعرف بالخطاب التأويلي الذي يعتمد آليات إقناعية تتقارب حينا وتبتعد أحايين أخرى عن مضمون الخطاب النّصي ، الذي يتضمّن الإقناع العقلي والتأثير الوجداني والانجذاب الروحي ، لأنّه وبكل بساطة يحاور النفس البشرية روحا وعقلا ، فهو يأخذ بالألباب والأرواح .

يقول نصر أبو زيد: " إن القرآن نص ديني ثابت من حيث منطوقه، لكنه من حيث مفهومه يتعرض له العقل الإنساني ويصبح مفهوما يفقد صفة الثبات، ومن الضروري هنا أن نؤكد أن حالة النص الخام المقدس حالة ميتافيزيقية، لا ندري عنها شيئا، والنص منذ لحظة نزوله الأولى، تحول من كونه (نصا إلهيا) وصار فهما (نصا إنسانيا) ؛ لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل، إن فهم النبي (صلى الله عليه وسلم) للنص يمثل أولى مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشري، ولا التفات لمزاعم الخطاب الديني بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص، على فرض وجود مثل هذه الدلالة الذاتية ...2) .

فالخطاب الديني هو غير الدين ، لأنّ الدين تنزيل الهي سماوي وسمناه بالنّص المقدّس ، أمّا إذا عدنا إلى الخطاب فنقول إنّه تراكمات أنتجها جمهور الفقهاء والمفسّرين والمفكرين ، عصرا بعد عصر وتشمل الشروح

والتفسيرات والتأويلات ، ومن هنا لا يعدو الخطاب الديني كونه قراءة بشرية للنّص الأصلي وتأويل للمتن المقدّس ، ومادام مجرّد قراءة إنسانية فهو عرضة لسوء الفهم ، وقابل للخطأ والصواب ويسري عليه ما يسري على غيره من النصوص من تعديل وتطوير وتجديد إذا رفعنا عنه عنصر القداسة .

ويمكن عرض الفوارق بين الخطابي في شك جدول يكون على النحو الآتي :

الخطاب النّصي	الخطاب الديني
تنزيل سماوي الهي	قراءة إنسانية واجتهاد بشري
منطوقه ثابت	منطوقه متغير بفعل التأويل
لغة محكمة ارتبطت بالإعجاز	لغة شارحة تحاول النسج على منوال لغة الإعجاز
خطاب مقدّس ومنزّه عن الخطأ	خطاب يقبل الخطأ والصواب
المرسل واحد	المرسل متعدّد
المرسلة في اتجاه واحد	المرسلة تأخذ اتجاهات متعدّدة

ودلالة الخطاب لما استقصيناها من المعاجم العربية ، توصّلنا إلى أنّها الكلام في شيء ذي درجة ملحوظة من الأهمية ويتّسم بالتنسيق والمعاودة والتحبير، وفيه قياس يشتمل على مقدمات ونتائج3

إذا كان النّص ثابتا من وحي الله لنبيّه صلّى الله عليه وسلم ، فإنّ فهم النّص يتغيّر مع الوقت بسبب التراكم المعرفي الذي يحصل مع التطورات

العلمية والفكرية ، مع الأخذ في الحسبان استرجاع معرفة اللسان العربي في فهم المعاني والمفاهيم التي يغيب فهمها لدى الكثيرين بما فيهم علماء الدين 4.

لقد ورد في كتاب نصر حامد أبو زيد الموسوم بـــ نقد الخطاب الديني ، ما مفاده: إنّ النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة ، والمصدر الالهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين لأنّها (تأنسنت) منذ تجسدّت في التاريخ واللغة وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدّد ،إنّها محكومة بجدلية الثبات والتغيّر ، فالنصوص ثابتة في منطوقها ، متغيّرة من ناحية المفهوم وفي مقابل النصوص تقف القراءة محكومة بجدلية الأخفاء والكشف "5

ولكي يحقّق الخطاب الديني أهدافه وغاياته ويتماشى مع المعطيات الجديدة التي تفرزها الحضارة، وجب عليه أن يوظّف مجموعة الآليات الحجاجية بمستواها العميق الذي يبتعد عن البعد التواصلي، الآليات التي تحضر فيها اللغة لا لغة اللغة (لغة التواصل العادي)اللغة التي يسوق فيها الخطيب مقاربة لأوضاع الأمّة ويسعى لاقتراح الحلول الناجعة لكثير من القضايا والسلوكات، فالقراءة الجديدة القائمة على فهم الشريعة وتفسيرها بغير ما تعهده العرب من لغتها وأساليبها يقلب الحقّ باطلا والباطل حقّا ويجعل الدين الواحد أديانا متعدّدة6 .

مشكلة الخطاب الديني كبيرة وتحتاج إلى توجيه دقيق حتى يستطيع إقناع الجماهير، فهل يعقل أن يكون خطابا بعيدا عن الواقع الذي يعيشه الناس ؟ هذه الحتمية دون شكّ ستؤدي إلى حالة من فقدان الثقة في هذا الخطاب ، وقد تمسّ الدين كله7.

الخطاب المسجدي نتاج الخطاب الديني :

من المنابر الدينية التي يتشرّب منها الإنسان العربي اليوم خطب الجمعة، نظرا لما تقدّمه له من إرشاد وتوجيه ووعظ وفي كثير منها يحضر عنصر النصح والإرشاد، ويعتمد الخطيب مجموعة من الآليات الإقناعية، مصدرها القرآن الكريم باعتبارها نصا مقدّسا ومرجعية أولى للخطب، وهذه المرجعية دعامتها اللغة العربية الفصحى ، ليأتي في المرتبة الثانية الحديث النبوي الشريف كمرجعية ثانية بعد القرآن الكريم والذي قال عنه نصر حامد أبو زيد : " القرآن كتاب العربية الأكبر وإرثها الأدبي الخالد "8 ويشمل ما أُثِر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وهو السند الصحيح الذي يحتج به بعد القرآن الكريم ويلي هذا كله كلام العرب ممثّلا في أشعارهم وأمثالهم وحكمهم ، وهذه المرجعيات اللسانية بحاجة إلى أدوات إقناعية مثلى كي يحقّق الخطاب الديني أهدافه وغاياته .

تقوم ملامح الخطاب الديني على جملة من الأسس أهمها :

1. أن يكون محدّد الموضوع ، واضح الهدف ، في إطار الشريعة الإسلامية .
2. الالتزام بشرف الوسيلة وحسن الأسلوب وجمال الطلب .
3. مراعاة حق المخاطب في الفهم و المناقشة وحرية اتخاذ ما يرى على أنّه عين الصواب .
4. التقيّد بالمرجعية الإسلامية وبمصادرها المعروفة 9.

الجمعة إحدى الخطابات الدينية التي تقام اليوم في المساجد ، وهي في أصلها خطبة وشعيرة تعبديَّة لها شروطها ومواصفاته، ومبناها على الإلقاء

والسماع والإنصات وهي نوع من الخطابة التي قال عنها أبو داود الإيادي : " رأس الخطابة الطّبع وعمودها الدّربة، وجناحها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخيّر الألفاظ ..."10 .

وفي رواية أخرى: "رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخيّر الألفاظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه، وما كان من الكلام لفظه سهلا ومعناه مكشوفا بيّنا فهو من جملة الرديء المردود، لا سيما إذا ارتكبت فيه الضرورات؛ فأما الجزل المختار من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها ، وأجود الكلام ما كان سهلا جزلا، لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها، ومتوعّرا متقعّرا ويكون بريئا من الغثاثة، عاريا من الرّثاثة 11.

مرجعية خطب الجمعة وآلياتها الحجاجية :

خطبة الجمعة وجعلها جزء أصيل من تشريعات هذا الدين، تمايزت عن غيرها من الخطب بخاصية الإلقاء على المنابر،هي موضوع واحد موحّد تسلتلزم التركيز،الخشوع،الانتباه، عدم تشتيت الأذهان،غلق باب التأويلات، وإن الخطيب الذي يخوض في أحاديث كثيرة يشتّت أذهان السامعين ويتنقّل بهم في أودية تتخلّلها فجوات نفسية وفكرية ، مهما كانت عباراته بليغة ومهما كان مسترسلا متدفّقا ، فالوضوح أساس لابدّ منه على اعتبار أنّ خطبة الجمعة ليست درسا نظريا بقدر ماهي حقيقة وواقع يراعى فيه الشرح وغرس القيم السّمحة .

لقد اتسمت خطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتحديدا فواتحها : "الحمد للّه نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له" .

وفي خطبة له بعد حمد الله والثناء عليه يقول : أيها الناس، إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم؛ إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه؛ فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت؛ والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار، ووجدت كلّ خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد فإن مفتاحها التكبير12.

فالخطاب الديني الذي جاء على لسان سيدنا محمّد بن عبد الله، فيه شيء من الاقتباس القرآني وظفّه في مواضع مختلفة ، وعلى سبيل الاستشهاد مثلا قوله : (الحمد لله) هي أوّل آية من سورة الفاتحة، مستقاة من الخطاب النّصي ويشبهه في كثير من الآي والعظات ، ولئن شافى لله بعيسى عليه السلام البرص فإنّ محمدا شافى الله به برص المعارف ، يقول الشاعر :

أَخُوكَ عِيسَى دَعَا مَيْتًا فَقَامَ لَهُ ** وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجْيَالاً مِنَ **الرَّمَمِ** 13

والدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط ، لأنّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنما يدلّ حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، وتوخّي صواب المعنى أحسن من توخّي هذه الأمور في الألفاظ ، لهذا تأنّق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة 14

يكون الإقناع بفكرة من الأفكار وقد يصل إلى مستوى إقامة الحجّة البرهانية، كما قد يقتصر على مستوى أقل من المستوى الأوّل ، حيث لا يتعدّى إقامة

الحجّة الخطابية ، وفي كثير من المواضع لا يعدو أن يكون مجرّد لفت النظر إلى الحقيقة علن طريق صور المشابهة15.

ويتماشى الإقناع والتأثير جنبا إلى جنب، فالإقناع يستوجب حضور البراهين العقلية، فتلقي مبادئ والدين الإسلامي وأحكامه ينبع عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أما التأثير مرتبط أيّما ارتباط بالانفعالات الوجدانية ونمثّل لذلك مثلا ساعة الحديث عن الهدي المحمدي، وأنّ محمدا أفصح من نطق بالضاد، وأحسن خلقا، وأجلّ حكمة .

-الكلام المرسل : الكلام المرسل مهم لأنّ الجهد العقلي فيه أقلّ ونشير إلى أنّ خمسة دقائق تستوعب علما كثيرا وهنا يكون الكلام دقيقا وموجّها ، بخلاف مثلا خمس عشرة دقيقة فهي تستوعب خطبة أو محاضرة جيّدة –على حدّ تعبير محمد الغزالي للدعاة – .

– ينبغي أن يكون في ذهن الخطيب صورة بيّنة لما يريد قوله قبل أن يواجه الجمهور ، تتشكّل وتتناسق أجزاؤها لتخرج في قالب ارتجالي أدائي ، ومهاري تزيّنه الدّربة .

– التسلسل المنطقي والمقبول للأفكار والأحداث : حيث إذا فرغ الخطيب من إلقاء كلمته وصل السامعون معه إلى النتيجة المراد بلوغها ، وفي هذا الإطار نشير إلى أنّه مطالب بانتقاء النصوص والآثار ما يمهّد طريقه إلى هذه الغاية .

في الختام نقول إن الخطاب النّصي خطاب عميق وثري ، ونحن اليوم أمام تراث غني في الموضوعات والمقولات والتوجهات يفرض علينا البحث الجديّ عن حلول لقضايا مجتمعاتنا بعيدا عن كلّ أشكال التقليد والتبعية للآليات القرائية الغربية التي قد تصلح لمجتمعات يختلف واقعها عن واقعنا .

- الهوامش :

* **زياد حافظ** أكاديمي واقتصادي وأمين عام المنتدى القومي العربي ، لبنان .

1- ينظر: محمود الذوادي، في مخاطر فقدان العلاقة العضوية بين المجتمعات العربية ولغتها، اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ط/ 1، 2007 ، ص : 41 .

2- عبد المحسن بن زين بن متعب المطيري ، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ، ط/ 1 ،ج1، 2006 ، ص ص: 238- 239 .

3- أحمد إبراهيم خضر المنتدى الإسلامي، نظرات في الاتجاه العلماني وموقفه من الإسلام، مجلة البيان،العدد:96 ،ص:40.

4- محمد شحرور : الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة ، دار الأهالي ، بيروت ، 1990 .

5- نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، سينا للنشر، ط/ 2 ، القاهرة ، 1994 ، ص : 119 .

6- محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مجلة البيان، الرياض، ط/ 1، 2004، ص: 25.

7- فتاوى الشبكة الإسلامية لجنة ، الفتوى بالشبكة الإسلامية ،الموقع الالكتروني http://www.islamweb.net،2009 .

8- نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن- الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص : 12 .

9- ينظر: أحمد أحمد غلوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، مؤسسة الرسالة ، ط/ 1، 2003 ج/ 1، ص:609.

10- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، مصر، ط/ 1 ، 1952 ، ص : 58 .

11- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص : 58 .

12- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية ،بيروت1997، ج4 ،ص 251 .

13- أحمد شوقي ، الأعمال الشعرية الكاملة ، دار العودة ، بيروت ،مج/ 1 ، ج/ 1 ، 1988 ، ص : 201 .

14- أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت ج/ 2 ،

ص: 358 .

15- عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي ، البلاغة العربية، الدار الشامية، بيروت ، ط/ 1 1996 ،ج/ 1 ، ص: 77 .